بيان

الحمد لله الذي أمر أوَّل ما أمر بالقراءة ﴿اقرأ﴾ –والقراءة نافذةُ المعرفة أو هي المعرفة ذاتها– وثنَّى، فربط العلم بالقلم ﴿الذي علَّم بالقلم﴾ في سياق مَنٍّ لم يفصل فيه بين الأمر بالقراءة والتعليم بالقلم إلا بالخلق والإيجاد. والصلاة والسلام على محمد ﷺ: الأمِّيِّ الذي هدى الناس، وعلَّم العلماء.

وبعد، فهذا (بيان) بولادة حوليَّة جديدة متخصِّصة، نرجو أن تكون إضافة نافعة لأهل التراث والمعنيين بشؤون المخطوط العربي في كلِّ مكان.

الموضوع

المخطوط العربي الإسلامي عالم رحب رحابة أفق الحضارة التي ينتمي إليها. الكَمُّ بالملايين: ملايين العناوين، أو ملايين النسخ! هو في الحالين أضخم تراث حيٍّ اليوم. والكيفُ ذخيرة نفيسة من المعرفة والعلم والقيم: معرفةٌ لا تزال قادرة على الاستمرار، وعلم لم ينل منه الزمن، وقيم صاغها خالق الناس للناس. مثل هذا التراث يحتاج احتشادًا بعمل كثير على أصعدة مختلفة؛ حفاظًا عليه، وإفادة منه، وبناء عليه، واستثمارًا له.

السياق العام

في زمن الحداثة وما بعدها أصبح القبض على الأشياء قبضًا على الجمر. فكأننا مصداق الحديث الشريف: (يأتي على الناس زمان، القابض على دينه كالقابض على الجمر)، على أنَّنا تجاوزنا اليوم (الدين) حتى إنَّ المفهوم المجرَّد (القبض) ومتعلَّقه (المقبوض عليه) ما عادا ممكنين، ودخلا في دائرة التعذُّر؛ بل الاستحالة! سال كلُّ شيء، حتى المعلومةُ، والمعرفة، والعلم؛ بل حتى القيم. وإذا ما طالت (السيولة) ذلك كلَّه، فإنَّ البشرية تكون –أو هي حقًّا– على جُرُف هار على وَفْق التعبير القرآني. ودع عنك الحلى والشيات والألوان وبريق الأدوات، وإبهار السرعة، وطيَّ المسافات أو إلغاءها، فما ذلك إلا هواء.

في هذا الزمن تمَّحي الألوان جميعًا، فلا أسود ولا أبيض ولا ما بينهما! وفي تلك الحداثة (السائلة) يرتفع شعار التفلُّت من كلِّ شيء، حتى من الأصول والمناهج والضوابط لتغدو قيودًا تكبِّل الجديد؛ بل تخنقه. وسط هذا الزحام والاختلاط والذُّهول، تُصدر (الدار) حوليَّة لتستدعي زمنًا آخر؛ شعاره المعلومة الموثَّقة، والمعرفة المكتملة، والعلم الحقُّ، والقيم الجميلة والخيِّرة للكائنات والكون جميعًا.

ليس الاستدعاء استدعاءً لماضي المعلومة والمعرفة والعلم والقيم للسكن فيه لِواذًا، أو احتماء، أو تغنِّيًا، أو تبجيلًا، لكنه استدعاء للإفادة منه، ولاستثماره، ولجعله وقودًا يدفع بنا دفعًا إلى الأمام، فنحن ندرك أنَّ مرمى النظر لا بدَّ أن يكون باتجاه المستقبل، ولكن من قال إنَّ النظر إلى المستقبل يتعارض والتفتيش في الذاكرة وتقليب صفحات كتاب التجارب؛ تجارب العقل في نجاحاتها وفي انكساراتها على السواء. يصدق هذا أكثر ما يصدق على الأمم التاريخيَّة عمومًا، والأمَّة العربيَّة الإسلاميَّة خصوصًا التي أعطت قرونًا طويلة؛ معرفة وعلمًا وقيمًا، من غير أن ترفع جُدُرًا عالية وسميكة بين المعرفة والعلم من جهة، والقيم من جهة أخرى.

ثلاثيَّة الرؤية والعمل والمقاصد

يحتاج العمل التراثي اليوم إلى أصول:

أصول في الرؤية؛ لتتحقَّق معادلة الثبات، والحركة؛ في آنٍ واحدٍ: الثبات بالتأسيس على أرض صلبة؛ وبالتماسك الذي لا خلخلة فيه. والحركة بالانطلاق الراشد الذي يعرف فلا يضلُّ، ويستشرف فلا يتخبَّط. بالأمرين معًا (الثبات والحركة) تجتمع أطراف العمل وجوانبه وإن تباعدت، فلا يَنِدُّ طرف، ولا ينأى جانب.

وأصول في العمل، تتجلَّى فيه الرؤية حراكًا علميًّا؛ لا أَمْت فيه، ولا عوج، يستقيم فيه الدرس، ويسير على سَنَنٍ واحد لا يتخلَّف.

وأصول في المقاصد؛ لتسمو الرؤية، ويثمر العمل.

ثلاثيَّةُ الرؤية المستقرَّة المحيطة، والعمل المستقيم المنهج، والمقاصد العالية النبيلة، هي التي تنهض عليها حوليَّة (أصول).

هاجسان في هاجس

(أصول) كلمة مفردة لكنَّها ذات حمولة معرفيَّة وقيميَّة ثقيلة، لذلك كان اختيارنا لها لتكون عنوانًا لحوليتنا المعنيَّة بالمخطوط العربي تدور في فلكه لا تخرج عنه. وقد جاء الاختيار خادمًا للغرض، فـ (الأصول)

والأصالة والأصل، معانٍ يلزم أن تكون هاجسًا ساكنًا فينا نحن العربَ والمسلمين في زمن نعاني فيه على الأصعدة جميعًا: الاجتماع والثقافة والسياسة والاقتصاد...نحن اليوم غائبون أو شبه غائبين عن الحضور في العصر، بمعنى أننا نعيش مأزقًا حضاريًّا كبيرًا. هذا الذي نقول قد يجد فيه البعض مفارقة، فإذا كنَّا خارج العصر، فإنَّ العقل يقضي أن نتحدث عن المعاصرة والعصر والحضور والاستشراف وما يحيل عليه من الحاضر والعيش فيه والمشاركة في صنعه، والنظر إلى المستقبل وصياغته، فما بالنا نستدعي التراث والتاريخ والماضي! هل هي غفلة في ترتيب الأوليات، في وقتٍ؛ الغفلةُ فيه إثم عظيم، أم لعلَّه هروب كبير من الواقع إلى حلمٍ؛ سراب بقيعة، لن نجد عنده الماء!

هاجس (الأصول) وهاجس (الحضور) هما في الحقيقة هاجس واحد مُصْمَت يستحيل الفصل بين جزأيه، بمعنى أن (الأصول) وما يحيل عليه داخلٌ في نسيج (الحضور) وما يحيل عليه، وأنَّ (الحضور) وما يحيل عليه لا يتحقَّق إلَّا إذا نهض على ساق (الأصول) وما يحيل عليه. لذلك فإنَّ دعاة القطع مع (الأصول)، وما أكثرهم اليوم! ودعاة القفز إلى (الحضور) وما أكثرهم اليوم أيضًا! كلاهما على ضلال مبين، وكلاهما يُيَمِّمان الخبيث لا الطيب، ويكدَّان في غير نفع، ويسافران إلى الوجهة الغلط، بل إلى الوجهة المعاكسة، التي كلَّما أوغلوا فيها، اتسعت الشُّقَّة إلى الصواب، وغَدَوا أبعد عن الغاية.

الوصل مع (الأصول) قيمة (إيجابيَّة) في حدِّ ذاته، والقطع معه قيمة (سلبيَّة) في حدِّ ذاته أيضًا، والسعي إلى (الحضور) قيمة إيجابيَّة في ذاته، والقفز إليه قيمة (سلبيَّة) في حدِّ ذاته أيضًا.

الأصول حضور، والحضور أصول، فلا حضور بلا شراع الأصول، ولا أصول إذا لم يصل بنا إلى مستقرِّ حضور.

ولذلك فإنَّ حديث الأصول هو في الوقت نفسه حديث الحضور، والعكس صحيح، بيد أنَّ نقطة البداية مختلفة، ونحن بحكم تخصُّصنا والدائرة التي اخترنا العمل فيها، نتكلَّم في الأصول غيرَ بعيدين عن الحضور، ولغيرنا أن يتكلَّم في الحضور، من غير أن يقطع مع الأصول، وبالأمرين معًا يكون الوصول الذي هو غاية الغايات، إذا ما خلصت النيات وصدقت العزمات.

فلسفة ورؤية

تنظر (أصول) إلى المخطوط نظرة كليَّة، فلا تختزله في (النصِّ) والعمليات المعرفيَّة الموضوعيَّة التي تدور في فلكه، ولا تحصره في (الوعاء) وتقاليد الصنعة (الأثريَّة) التي تتصل به، ولا تأسرها (الخوارج) أو (القيود) التي هي على الأعراف بين النصِّ والوعاء، ولا تجتذبها فنونه وقيمه الجماليَّة، ولا تتوقَّف عند فتح

مصراع واحد على التاريخ وأسئلته. إنَّها تجمع شمل: النصَّ والوعاء والخوارج والفنون، مضافًا إلى ذلك كلِّه الحاضرَ وأدواته وتقنياته الخادمة؛ صيانة، وحفظًا، وترميمًا، ورقمنة، وحوسبة، وبرمجة...إلخ.

المخطوط العربي في مرآة (أصول) قضيَّة كبيرة؛ حقل معرفي مركَّب ومتكامل؛ كائن تاريخي بالغ الخصوبة، حاثٌّ على الاستثمار، وكائن حضاري فعَّال قابل للتثوير. وفي سبيل ذلك تسعى جاهدة لاستقطاب الحراك الفكريَّ والمعرفيَّ والمنهجيَّ في أعلى درجاته، من الجميع؛ أساتذة كبارًا، وباحثين واعدين، عربًا، ومسلمين، وأجانب؛ إذ إنَّها تؤمن إيمانًا عميقًا بأنَّ (الحكمة) هي الضالَّة التي ينبغي أن تُنْشَدَ، وذلك بشرطين: شرط جدارة المادة العلميَّة، وشرط الالتزام بالقيم التراثيَّة والدينيَّة والحضاريَّة التي استحالت ثوابت انعقد عليها الإجماع.

ومن الاستثمار إلى التثوير مساحة واسعة من العمل التراثي المتشابك والمتنوّع على أصعدة عديدة، منها التفكير الإستراتيجي الذي يستنفر الماضي ويثوِّر التاريخ ليحيل العمل في الماضي بناء للحاضر واستشرافًا للمستقبل، وذلك بربطه بقضايا الهويَّة والخصوصية وتحقيق شهود حضاري جديد.

هذا التفكير الإستراتيجي تغفل عنه الدوريَّات التراثية العتيدة في زحام انشغالها بقضايا العمل، تاركة هذا المجال الحيويَّ للدوريَّات ذات الطابع الفكري الخالص، والتي تكون غير منتمية إلى التراث وقيمه، وفي أحيان كثيرة تصدر عن مواقفَ معاديةٍ له.

خريطة وتضاريس

أبرز التضاريس: (المحور) الذي تحرص (أصول) على حضوره الدائم، وتثير فيه قضيَّة من قضايا المخطوط العربي، سواء كانت (موضوعيَّة) مجردة؛ أو تاريخيَّة خاصَّة؛ أو خليطًا: تاريخيَّة عصريَّة، أو كانت مرتبطة بعَلَمٍ من الأعلام في القديم، أو في الحديث، وفي التضاعيف ما يتصل بذاك العَلَم وما أثار وما أُثير حوله من إشكاليَّات تراثيَّة. المهمُّ في (المحور) أنَّه يرسم (نقطة) معرفيَّة، ثم يحشد أو يحتشد لها من زوايا نظر عديدة، ومن علماء وباحثين ذوي انشغالات وتخصُّصات مختلفة.

من الخطوط المهمَّة على خريطة (أصول) ما لفتنا إليه آنفًا، ونعني التفكير الإستراتيجي في التراث. ومنها –أيضًا– ما يعكس روح الثقافة الإسلاميَّة التي هي بطبيعتها ثقافة إنسانيَّة عالميَّة؛ لا عوليَّة، تُعطي وتأخذ؛ تُعطي بلا مَنٍّ، وتأخذ بلا كِبْر، نشير هنا إلى الانفتاح، وذلك بفتح الباب مشرَعًا للترجمات، وبخاصة في المجالات التي قطع فيها الآخر شوطًا في خدمة المخطوطات الشرقيَّة، ومنها العربيَّة، وفي خدمة مخطوطاته الإغريقيَّة واللاتينيَّة؛ إذ العمل في التراث ذو قواسم مشتركة أيًّا كانت انتماءاته ولغاته، هذا إضافة

إلى أنَّ المنجر التقنيَّ الذي جلَّى فيه الغرب غدا اليوم جزءًا لا يتجزَّأ من التنمية التراثيَّة بمفهومها العام الذي يشمل خدمة المخطوطات والإفادة منها وتوظيفها واستثمارها.

التضاريس الأخرى لـ (أصول) ليست أقلَّ أهمِّيَة فهي تتسع لتشمل علوم المخطوط العربي، فثَمَّ مساحات واسعة للبحوث الببليوغرافية الخاصة بالمخطوطات، وللنصوص المحقَّقة المستوفية لشروط النشر النقدي، وللدراسات العلميَّة المنهجيَّة القائمة عليها، وللمتابعات النقديَّة (الموضوعيَّة) للحَراك العلمي في مختلف المجالات، ولعروض الكتب (المهمَّة) لكنها العروض التي لا تنهج منهج الوصف، وإنما تربط وتُسَكِّن المعرفة محلَّ العرض في سياقها، وتُسائلها، وللاستدراكات والتذييلات التي تَجْبُر ما نقص من الطبعات، أو تضيف إليها ما يجعلها أكثر اكتمالًا ونضجًا وعلميَّة، وثَمَّ مساحة خاصة لتاريخ الكتاب ورحلة المخطوط العربي وإعادة بناء المكتبات التراثية..

على خريطة (أصول) أيضًا كلُّ ما يتعلق بالتوثيق، فنحن –كما قال الإمام الشافعي– أمَّة السند، وما السند إلَّا التوثيق. تُعْنى (أصول) كثيرًا بمسائل توثيق عناوين النصوص، وتدقيق أسماء المؤلفين، وتحقيق نسبة النصوص إلى أصحابها، وهو ما يتصل بعلم الفهرسة والتصنيف، ويخدمه مباشرة.

وإذا كان ما سبق كلُّه عملًا في النصوص ودورانًا في فلكها، وهو أمر بالغ الأهميَّة، فإنَّ مجالات علم المخطوط (الكوديكولوجيا) الثريَّة؛ هي في ذاتها على الدرجة نفسها من الأهميَّة، فالوعاء والخوارج أو القيود بما تختزنه من تاريخ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ وحضاريٍّ هي في نظر (أصول) جزء من النصِّ أو من المعرفة التي يحملها النصُّ، لا يكتمل؛ بل لا يستقيم إلا بالاعتماد عليها.

(أصول) تؤمن

(أصول) حوليَّة؛ ليست فصليَّة، ولا نصف سنويَّة، فهل اخترنا الزمن المتسع لكي تكون مادَّتها العلميَّة مختارة أو مصطفاة، ثمَّ محكمة أو محكَّكة؟

و(أصول) تولد راشدة، لن تمرَّ بمرحلة طفولة، ولن تتعثَّر وتتعلَّم من تجاربها. ستشبُّ عن الطوق سريعًا، وعينها على التفصيلات في أدقِّها، بدءًا من الفكر والعلم والمعرفة والمنهج، وليس انتهاء بالحرف والشكل والإخراج. السَّيْر الناظم لحَراكها هو العلم النافع والقيم الراشدة.

و(أصول) تؤمن بأنَّ أرض المخطوط العربيِّ تَسَعُ الجميع، وأنَّ التنافس الشريف، بل التكامل، هو الكفيل بأن يصل بها إلى أبعد غاياتها، بعيدًا عن المزاحمة، فالأرض كلُّها حقول أبكار تحتاج عملًا لا حدود له، ولذلك فإنَّها تمِلّ لعمل الآخرين وتسعد به وكأنَّه عملها.

و(أصول) تؤمن إيمانًا بالنقد؛ لأنَّه يبني، وتزهد زُهدًا بالتجريح؛ لأنَّه يهدم، وهي تسعى إلى البناء لا الهدم. ولذلك فإنَّها تفتح صفحات قلبها، وتستقطب الأقلام المترعة بمداد هو مزيج من العلم والأدب.

و(أصول) تؤمن بالعمل الصامت، وترى أنَّ الصخب والضجيج ينال من العمل ويشوِّش عليه. إنَّهما كِفَّتان متقابلتان، إذا ثقلت إحداهما شالت الأخرى. وليس أبلغ في هذا السياق من قول أبي نُواس:

مُت بداء الصمت خيرٌ لك من داء الكلام

حَرْد (البيان)

فُرِغ من تحرير هذا (البيان) بعون الله وحُسن توفيقه يوم الخميس الحاديَ عشرَ من شهر محرَّم الحرام؛ من سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة وألف من الهجرة النبوية، الموافق التاسعَ عشرَ من شهر آب (أغسطس) من سنة إحدى وعشرين وألفين من ميلاد السيد المسيح، وذلك في إسطنبول العامرة، والحمد لله ربِّ العالمين.